شخصية الافراد والجماعات(١)

اجتمع بباريس جمع من كبار خبراء الفن لكي يروا رأيهم في صورة اسمها La Belle Ferronuière نسبت الى المصور الايطالي الشهير ليوناردو فنشي وكانت احدى السيدات قد اشترت هذه الصورة على أنها الصورة الاصلية ودفعت ثمناً كبيراً . ثم وقع الشك في نسبتها الى ذلك المصور العظيم لوجود مثيلتها تماماً في متحف اللوفر بباريس . فلما فحصها الخبراء قرروا انها ليست من عمله

هؤلاء الخبراء حللوا ما يعرفون عن ذلك المصوّر وعن طريقته وطبقوا ذلك على الصورة فلم يجدوا فيها مزايا ذلك المصور . اي لم يجدوا فيها شخصيته فحكموا انها ليست من عمله وانها « صورة طبق الاصل »

والذي يزور متحف اللوفر هذا يرى كثيراً من المصورين ينقلون بعض صور المصورين الشهيرين . ولكنه اذا قارن بين الاصل والمنقول يلحظ انه مع وجود الدقة والمهارة في الصنعة وفي الالوان لا تزال هنالك امور قد لا يستطيع التعبير عنها تماماً تجعله يرى في الاصل ما لا يرى في المنقول — هذه الامور التي يلحظها في الاصل هي اثر الشخصية الخاصة بالمصور الاصلي

في الثورة الفرنسية كتب احدهم خطبة على نسق ما يُلقي ميرابو Mirabeau خطيب الثورة . وأراها له فاعجب بها وقال انه سيلقيها غداة اليوم في الجمعية . فقال له الرجل انه قرأها على غيره . قال ميرابو حتى ولو ألقيت في نفس الجمعية فأني سأريك كيف يكون اثرها من فمي

***

من هذه الامثلة العادية البسيطة نستخلص بسهولة معنى الشخصية النفسية وتعريفها — فهي مجموع الغرائز التي خصتها الطبيعة بالفرد مضافاً اليها ما يكتسبه هو من الحياة

وعلى ذلك تكون الشخصية النفسية ذات قسمين : موروثة ومكتسبة

فالشخصية الموروثة هي المجموع المكوّن من الامزجة وقوى الادراك . وهي اصيلة

(١) خطبة القاها راشد افندي رستم رئيس الجمعية المصرية بباريس في منتدى الجمعية

لانها موروثة ووراثيتها هذه عامة شاملة فهي للنوع وللجنس وللاسرة وللافراد. وهي اساسية جوهرية لان بها يتعين مصير الافراد في الحياة

والشخصية المكتسبة هي المجموع المكوّن من الذوق والميول والعادات والتذكارات والمعتقدات

وهذه الشخصية المكتسبة — وقد يعبر عنها بشخصية الوسط — قابلة بخلاف الشخصية الموروثة للتغير والتطوّر. بل ان الصلة الدائمة بين الشيء ووسطه في تغيّر مستمر وكلما تحكمت صلة الشخص بالوسط الذي يحيط به تمكن تحت تأثير عوامل امزجته وقوى مداركه الخاصة من ان يستفيد من العوامل الخارجة عنه والمحيطة به ويستعين بها على تكيّفه وتطوره. فالشخص الذي ينتقل من بلاد الى اخرى لا لتغير شخصيته الموروثة من امزجة ومدارك وانما شخصيته المكتسبة هي التي تتغير وتتطور سواء الى الاحسن أو الى الاقبح. وكلما تأقلم الشخص كان اثر تطوره الاكتسابي اظهر واقوى

وان هذه الحالة النفسية من حيث الحياة الاجتماعية هي ذات خطر عظيم وشأن كبير. اذ ان الاشخاص لا تقدّر في الواقع بمزاياها في حد ذاتها وانما باعمالها اي بما تقوم به هذه المزايا. على ان هذه المزايا لا تستطيع اظهار ذاتها الاّ بالاجتماع فقيمة الافراد حينئذٍ تقدر باعمالهم او بهم انفسهم اعمالهم

وعلى ذلك فان العناية يجب ان توجه الى ما ستؤول اليه شخصية الفرد الموروثة بالنسبة لاحتكاكه الدائم مع الاوساط حيث تتحدّد شخصيته بما تترك الاعمالُ والافعالُ التي اشترك فيها من المظهر الخاص به

والعوامل التي تؤثر في حياة الناس تتكون في مجاميع متعددة — في المجاميع الطبيعية والبيولوجية والمجاميع الاجتماعية. على ان اهم العوامل المؤثرة في تكييف الشخصيات النفسية هي العوامل الاجتماعية. فكم من الأثر في زميل من زميل. وفي محب من حبيب. وكم من الاثر لكتاب في قارئ وكم من اثر للعائلة وللمدرسة وللوسط. وهذه كلها هي مظاهر لتبادل النفسي بين الشخصيات

واشد ادوار النفس قابلية للتأثر هي ادوار الحياة في الطفولة والصبا حيث تتلبس الشخصية الموروثة ما يصادفها بسرعة ونشاط. وذلك مظهر مشهود في الحياة العملية. وما بحوث علم النفس وقواعده الاّ مقررة لصحته. ولذلك رأى رجال التربية ان يُبدأ للطفل في درس التاريخ بذكر حياة العظماء وسيرهم واظهار مزاياهم التي ارتفعت بهم. وذلك

لكي يبهوا ما قد يكون في هذه النفوس الرطبة من الشخصيات ذات الاستعداد لمثل تلك العظم التي ظهرت قبلهم في غيرهم . وحياة الكبار دروس الصغار

***

وأهم العوامل النفسية الداخلية التي تعمل على تكييف الشخصية المكتسبة وتقويتها ولزومها تنحصر بعد التحليل النفسي الدقيق في « القوة الذاكرة » فهي التي تحفظ ما تصادفهُ من الخبرة والتجاريب . ثم بالتكرار وبالاكثار تكون الصفات الاولى التي تكوّن فيما بعد طباعًا خاصة للشخصية . ومن السهل ادراك خطر هذه القوة بملاحظة ان الانسان لا يعمل عملاً فطريًا بديهيًا من غير تمثل الآ في دور حياته الاول . اما بعد ذلك فهو تحت تأثير ما انطبع في قوى ذاكرته النفسية . مع ملاحظة ان نسبة اهمية ذلك تتمشى مع نسبة تكراره واعادته . وتكرار الفعل يخلق العادة

ومن العادات ما يصير خاصًا كعادة تناول الطعام الكثير الملح او الكتابة بخط انيق جميل أو المشي بالعصي . ومن العادات ما يكون اجتماعيًا كالتي تتعلق بالاقليم وبالوسط وبالحكومة مثل طرق الأكل وكيفية التدثر وانواع التحيات وما الى ذلك

ومن المشاهدات البسيكولوجية ان الشخصيات الموروثة هي فواصل بين الافراد . مظاهر التفرقة بينهم . عوامل انفصالهم بعضهم عن بعض . مميزات كلٍّ عن كل . بينما الشخصيات المكتسبة هي عوامل التقرب بينهم مظاهر تماثلهم روابط افرادهم مضعفات تباياتهم

فالشخصان اللذان تميزهما صفات موروثة خاصة بكل منهما بان يكون احدهما مثلاً شاعراً ميالاً الى الطبيعة والجمال . والآخر حدّاداً ماهراً في الاعمال اليدوية المحسوسة . هاتان الشخصيتان منفصلتان بما خصت الطبيعة كلاً منهما من المزايا الخاصة المختلفة . ولكن تجمعهما الشخصية المكتسبة لكل منهما من وسطهما وحياتهما وكونهما من اسرة واحدة مثلاً أو في بلد واحد او تحت نظام واحد فهما يتكلمان لغة واحدة ويعيشان بعوائد وانظمة واحدة . فالشخصية النفسية الموروثة لكل منهما فرّقت بينهما وباعدت وذلك بان جعلت احدهما شاعراً والآخر حدّاداً . ولكن الشخصية المكتسبة في كل منهما قربت ما بينهما ووصلتهما ووحّدتهما بان جعلت لغتهما واحدة وعاداتهما القومية واحدة وهكذا

وعلى ذلك فالشخصية المكتسبة بتأثرها في طرق السلوك والمعيشة توجد المظاهر الموحدة للوسط الواحد . ومن هذا يمكن تفسير الاختلافات بين الاخلاق والعادات الخاصة بجنس دون جنس وبشعب دون شعب وبالتالي تكون الاختلافات في المعتقدات

والمذاهب واللغات مظاهر لهذه الشخصية المكتسبة في الامم المختلفة . كما ان بها ايضاً يمكن تفسير الاخلاق الخاصة بالجماعات في الشعب الواحد والخاصة بادوار العمر في الافراد من الطفولة والصبا وغيرها . وكذلك الخاصة بنوعي الانسان من الذكور والاناث فان لكل حالة من هذه الحالات العامة حكمها الشامل العام عند الافراد الذين تجمعهم احدى هذه الحالات. فالطفولة لها ميزتها العامة على الجميع كذلك الشيخوخة لها ميزتها في حينها كما ان الانوثة اثرها غير أثر الذكورة وان لكل منها حالة تشمل افراد كل منها

وعلى ذلك فدور الشخصية المكتسبة في الحياة دور هام خطير . على انهُ ليس من السهل معرفتهُ وتحديدهُ الاَّ بعد تحليلات نفسية وبحوث دقيقة كثيرة في العوامل المتعددة التي تُعيّنها وتحددها . كما انهُ من الخطإ تقدير الشخصية المكتسبة فوق حقيقتها اذ لا ينسى انها عبارة عن اظهار لشخصية الموروثة التي لا يمكن انتلاعها أو هي بعبارة أُخرى تطبيق كامل لتلك الشخصية النفسية الموروثة

***

وهذه الشخصية النفسية بقسميها تكوّن الشخصية الفردية في الجماعات — ومظاهر هذه الشخصية الفردية موجودة في كل العصور لان الانسان كائن اجتماعي . ولكن العصور الحديثة امتازت بتحليل النفسيات الشخصية ومعرفة اسرارها وعوامل اختلاف بعضها عن بعض واثر هذه الاختلافات. وكل ذلك للاستفادة منها فان معرفة توزعها بانواعها وبصفاتها في الافراد وفي الجماعات يهيء كثيراً من عوامل الانتفاع بالوسط وكذلك من جعل الوسط نفسه نافعاً للشخصيات . لذلك جُعل علم النفس من العلوم الاساسية الواجبة على المربين والمعلمين ورجال الجماعات كالقضاة والمحامين والخطباء ورجال الدين . وقد تأسست مبادىء التربية الحديثة على المعلومات النفسية في الاطفال حتى يستفاد اكثر ما يمكن بمزاياهم الشخصية دون اهمال احداها ودون اضاعة زمان طويل في تهذيبهم وتربيتهم

وتُعرّف شخصية الفرد بدرس وتحليل مشاعره ومداركه وقواه وقد يسهل بعد ذلك تنمية هذه الشخصية او اضعافها وان كان لا يمكن تغييرها . وبما ان غرض الحياة هو الخير فقد جعل الاساس في معرفة الشخصيات الاستفادة منها لتوجيهها وجهة نافعة

والطريقة العملية للاستفادة من الشخصية هو تحسين الاوساط وذلك بتحسين طرق التهذيب والتربية

والذي يدرس حالة الاوساط في هذه المدنية العصرية يجدها اوساطاً نافعة للاستفادة

من الشخصيات. فتوحيد التعليم يهيء الجماعات للنظام والنظام هو اساس الوجود والايجاد، كالجيش المنظم هو اقرب للفوز من الجيش المختل

والتربية في المدنية الراقية مؤسسة على فكرة الاجتماع والرابطة بين الافراد. ولذلك تعيش بينهم الجمعيات وتكون فوائدها عندهم اكثر منها عند الامم الضعيفة في المدنية. على ان هذه التربية المؤسسة على فكرة الاجتماع والرابطة قد تعتبر مضعفة للشخصية الفردية والواقع انها لا تعارضها. لان كل شخص يُرَبَّى بحيث يشعر بشخصيته «كفرد تام حرّ» وفي الوقت نفسهُ يُعلَّم ان «فرديتهُ الحرة» لا تتم الاَّ بفرديات غيره. فينتج عن ذلك شعور كل شخص بحريته وحدودهِ التامة ثم اعترافهُ بشخصية الآخرين وبأنهُ في حاجة الى شخصية هؤلاء الآخرين لتحديد شخصيته ولتمييزها كاحتياجهم هم اليهِ لتحديد شخصياتهم من جهة أخرى. وعلى ذلك يعيش الفرد منهم عارفاً بشخصيتهِ الخاصة معترفاً بشخصية جماعتهِ التي هو في وسطها. وهذا النوع من الجماعات هو ارقى انواعها الانسانية — ذلك ان الفرد فيها يرى نفسهُ «واضحاً محدوداً» لانهُ يرى ان كل من حولهُ يعرف لهُ هذه الحدود واضحة كاملة وهكذا يشعر بحقوقهِ ويعرفها تامة بيّنة ثم يسهل عليهِ المطالبة بها اذا انتقصت لانهُ يرى مَن حولهُ مثلهُ في ذلك

وقد تختلف مظاهر هذه الفرديات باختلاف نُظم الاجتماع في البلاد المختلفة. ولكن ارقى الجماعات ما كان افرادها اوضح حدوداً بعضهم قِبَل بعض

واما في الجماعات الضعيفة النظامات فلا تكون الشخصيات الفردية معروفة. لان فكرة تحديد الشخص وبالتالي احترامهُ غير موجودة. وهنالك يعتقد كل فرد انهُ حرٌّ فيما يفعل وهو لا يعرف لفرديتهِ حدوداً يقف عندها. وكلما تُركت تلك الحدود دون تعيين كانت الجماعة متأخرة في سلم المدنية ولذلك يستبيح الفرد في تلك الجماعات التعدي على غيره كما ان فكرة «الجماعة» (١) في تلك الاوساط الدنيا هي فكرة مبهمة. ولذلك يلاحظ ان اول مبادئ القوانين الطبيعية والوضعية هو تحديد حقوق الافراد وواجباتهم ثم المعاملات والروابط الاجتماعية ثم حقوق الجماعة والسلطان الذي هو مظهرها

***

ان الشخصية الفردية الواضحة هي دليل رقي الجماعات. وفي مثل هذه الجماعات يكثر

(١) المقصود بالجماعة هنا معناها العام الشامل لمجموع هيئة بشرية كبيرة كالقبيلة والامة

نجاح الشخصيات ويقل فشلها . والواقع هو الدليل المحسوس على ذلك . فان الشخصيات الفردية الكثيرة المتباينة تجد كلٌّ منها ناحية صالحة لها في الوسط الراقي . ذلك ان هذا الوسط الراقي لا يترك ناحية من نواحي الحياة الاَّ اقتحمها وذللها ومهَّدها واظهرها . فلا تموت على ذلك شخصيةٌ في مثل هذا الوسط لانها تجد مكاناً منهُ تعيش فيهِ وفق استعدادها

ثم انهُ ليس من الضروري ان تكون الشخصية الفردية من جنس الجماعة التي انتقلت اليها . فكم من افراد الامم وكبار رجالها الافذاذ يتركون بلادهم الاصلية وينتقلون الى غيرها يعيشون فيها بارزين بشخصياتهم معترفاً لهم بها . وهذا هو مظهر البشرية الانسانية كجماعة واحدة . كما انهُ دليل على ان الاوساط الراقية واسعة النطاق حيَّة مستعدَّة لقبول الشخصيات . في حين ان هذه الشخصية الخاصة لا ترتاح الى المعيشة في وسط لا يعرف مكانتها ولا يدرك مزاياها

وهناك النظرية الاجتماعية التي تقول بان الشخصية الفردية لا تزال قوية ظاهرة محدودة حتى تندمج في جماعة[1] فتضعف وتعيش . وذلك صحيح : انها ان وقفت خارج الجماعة فهي تحتفظ بكامل شخصيتها كما ولكن انضمامها الى جماعة يجعلها مضطرة الى التوفيق بينها وبين الشخصيات المتعددة في تلك الجماعة . وان في هذا التوفيق تنازلاً عن مميزات لها . لان فيها تقييداً بنظام خاص للجماعة دون نظر الى الفائدة التي قد تستفيدها هذه الشخصية من الجماعة أو الفائدة التي تفيدها هي لهذه الجماعة

والجماعات وان كانت تضعف فيها الشخصيات منظوراً اليها باعتبارها كتلةً واحدةً الاَّ انها لتكون من مجموع هذه الشخصيات الفردية فاذا كانت الشخصيات الفردية قوية في جماعة كانت هذه الجماعة اقوى من الجماعات التي شخصياتها الفردية ضعيفة . كما ان الجماعة التي تُوجد في افرادها فكرةُ المحافظة على شخصياتهم وعلى شخصية جماعتهم تكون احفظ على شخصيتها كجماعة من جمعية اخرى تضعف فيها محافظة افرادها على شخصياتهم

وان آية بقاء شخصيات الافراد والجماعات ان يكون « الفرد للكل والكل للفرد »

باريس راشد رستم

(١) المقصود بالجماعة هنا معناها الضيق كشتى جمعية خاصة او حزب من الاحزاب